

المضمون الايديولوجي للخطاب الأدبي في الابتدائي .

أباعقيل العربي

٤) يجب أولا ان، نتوقف بعض الشيء لتحديد المفاهيم التي أتت في عنوان هذا العرض .

1 - الخطاب الأدبي :

المقصود هنا ، النصوص التي تكون محتوى كتب القراءة بالابتدائي المغربي وعلى وجه الخصوص كتب القراءة في المتوسط الثاني . وفي هذا الصدد سوف لا نتطرق الا للكتب المكتوبة باللغة العربية .

2 - لماذا بالذات كتب القراءة كخطاب أدبي معبر عن الخطاب المدرسي ؟

أ - لان جميع العمليات التربوية تنطلق من هذا الخطاب : المفردات ، التراكيب ، الملخص ، الانشاء ، وفي بعض الحالات حتى النحو والمحفوظات .
ب - لانه خطاب رسمي ومعهم

ج - لان واضعيه (المؤلفون) متفقون على الهدف المرجو منه .

اتاحة الفرصة للطفل - التلميذ للتعرف على بيئته ، واعطائه سلوكا طيبا ومستقيما وتكوين شخصيته الفتية وبالتالي نمجه في المجتمع (انظر افتتاحيات بعض هذه الكتب) .

اذن فالهدف المعلن عنه هو التنشئة والتطبيع .

د - وضع التلميذ المغربي بالمتوسط الثاني :

- ضرورة النجاح في الامتحان لولوج أقسام الثانوي ،

- ظاهرة الضياع المدرسي التي تأخذ حجما مخيفا في هذا المستوى .

- وكنتيجة لهذه الظاهرة ، ضرورة التنشئة تبقى ماسة وفي وقت

وجيز وقبل « مغادرة » المدرسة للشارع . واذن قد يهمننا كثيرا معرفة معالم

هذه التنشئة ، وهنا نصل الى مفهوم المضمون .

د - يقصد من المضمون ، هنا ، المعنى الذي يحتوي عليه الموضوع .

فالوحدة التحليلية التي روعيت في هذا البحث ، وبصدد هذه الكتب

المنكورة هي الموضوع : موضوع النص ، موضوع الفقرة من النص ، موضوع الجملة الخ .. ولا نتطرق هنا لمعنى الكلمات أو لشكل من أشكال الاسلوب . على اي فان هذه المسألة لها علاقة بالمنهج وقد نعطي معلومات ضافية حول هذه المسألة ، اذا طلبت ، في المناقشة .

4 - الايديولوجيا :

يحدد هذا المفهوم

- كنسق نظري حيث للأفكار أصلها في الواقع (المادي) كما هو الحال دائما بالنسبة للأفكار .

ولكن النسق النظري الذي يطرح ، بالعكس ، وكان الأفكار لها استقلال ذاتي ، يكون وبالتالي تصورا وهميا في نفس الوقت عن الشيء الذي يتطرق اليه وعن نفسه هو . ويلعب هذا التصور الوهمي دورا لطمس الحقائق وبطريقة ، في أغلب الاحيان ، لا شعورية حيث « الايديولوجي » هو نفسه مخدوع اذ يظن أن الأفكار لها استقلال ذاتي . والأفكار التي تفصل عن علائقها بالواقع تخدم بناء نسق نظري همه هو طمس وتبرير السيطرة الطبقية .

فايديولوجي ليس معناه خاطيء ، الايديولوجيا تسوق كذلك أفكارا صحيحة ، ولكن المنهجة *Systématisation* ، وبغض النظر عن الواقع الذي يعكس هذه الأفكار ، هي التي تكون ايديولوجيا بالمفهوم السابق الذكر . لناخذ مثلا في التربية (ما دام الموضوع يدور في هذا المجال) : التحرك الايديولوجي للتربية يتركز على سياق مثلت :

أ- يحول الوقائع الاقتصادية ، الاجتماعية ، السياسية المرتبطة بالتربية الى مشكل ثقافة فردية .

ب - يحلل الظواهر الاجتماعية ارتكازا على المؤهلات الفردية كذلك (انظر النصوص الواردة في كتب القراءة المشار اليها) .

ج - القول بمسئلة - بصفة ضمنية أو واضحة - وهي مرد المجتمعي *Sociologique* الى الفردي *l'individuel* . ولما ما ينتج عن هذا التصور الايديولوجي فهو أن البنيات الاجتماعية والصراعات الاجتماعية لا واقع لها في حد ذاتها وما هي الا عواقب النشاطات الفردية ، ولا وجود - بالتالي - الا للفرد الذي هو السبب الاول والاخير لكل واقع اجتماعي .

وللتاثير في المجتمع يجب إذن التاثير في سببه اي الفرد ، وهذا الفرد يكون مسؤولا :

أ - على مصيره .

ب - على تنظيم المجتمع ، وبالتالي الفرد الشقي اجتماعيا ، يجب أن لا يلوم الا نفسه .

(2) للفرضية التي انطلق منها البحث :

ما دمنا في إطار التنشئة المدرسية (كتب القراءة واهدافها لتكييف سلوك
التلاميذ ...) فلا بد من الوقوف عند التعريف الرسمي للتربية .

في التصميم الخماسي 1977 - 1973 ، مجلد 2 ، ص. 689 ، نجد أن
التربية قد عرفت بالتعليم الذي يضمن - كما تقول الوثيقة المشار إليها -
شروط التقدم الاجتماعي ، ويساهم في ترقية الطبقات الغير المحظوظة .
وبعبارة أخرى ، المشكل التربوي كله يكمن في تبليغ المعلومات التي
يمهد لها ان تهيء التلاميذ الى الاحراز على شغل .

نسجل هنا السكوت عن الاشكال المتعددة التي قد ترمي اليها التربية ،
وابراز فقط الصفة المتحدة الاتجاه . ولكن من وراء هذه النظرة الا يتم طمس
لواقع التربية (في شكلها الرسمي : التعليم) ، اي مثلا ، اعادة انتاج الفوارق
الاجتماعية ؟

اليسست التربية ، وكيفما كان شكلها حث لاحترام قيم ، أو على الاقل
توجيه افعال وسلوك المرابي (بتشديد الباء وفتحها) حسب بعض القيم ؟
فالثقافة كمضمون للتربية ، اليسست الاخلاق ، والدين ، والميتافيزيقا ،
والقانون ، والسياسة والافكار والتصورات وكذلك الوعي الذي يتوفر للبشر
على الاشياء وعلى المجتمع .

وحتى اللغة التي توظف في ترسيخ كل انتاج فكري في الذهن وفي سلوك
الذات التي ينتظر تطبيعيها ؟

وانطلاقا من تعريف للتربية كفعل مقصود ومؤسسي منتج لتغيير في
السلوك ، نريد ان نقف على المواضيع المحدودة (أي القيم التي يجب أن
نخضع لها ، أي التصورات) والتي ترتكز عليها المدرسة - انطلاقا من
الخطاب المدرسي - في تطبيعيها للأفراد .

بالطبع ، نفترض ان هناك تصورات سائدة وأخرى قد تطمس حسب
ما قلناه في تحديد مفهوم الايديولوجيا .

قبل اعطاء فكرة على ما تأتي به النصوص التي تحتوي عليها كتب
القراءة ، من المفيد أن نشير هنا (على سبيل المثال) الى بعض الملاحظات
والخاصيات التي يتميز بها هذا الخطاب .

I - فكرة الواقع المقلوب هي الميزة التي يختص بها الخطاب بالنسبة
للواقع الحقيقي ، مثلا عوض الطبقات الاجتماعية نغرق في مفاهيم مثل «الفقير»
« الغني » ، « المسكين » .. الخ ..

2 - وعدم « وجود » الاطفال (على عكس كتب القراءة بالفرنسية ،
و « غزارة » الأباء (بالمفهوم الاجتماعي ، وخصوصا آباء الماضي)

هنا تتم التنشئة بأنماط من الشيوخ (العقلاء ، الراشدون) أي أن الرجل العاقل (طبقته) هو الذي « يحمل » بعض الانماط السلوكية - الخلقية وبالتالي هو أساسا من « شخصيات » الماضي .

وعدم وجود الاطفال يعني عدم الاستفادة من علم النفس ، حيث الاطفال - التلاميذ قد يتقنسون شخصية الاطفال - الاشخاص الواردة في النصوص .

3 - منزلة لفعل :

تتميز أغلبية النصوص بالصيغة الاسلوبية والتي هي صيغة مبنية للمجهول وصيغة مبهمه .

وهذه الطريقة تبلور الهروب من ربط الفعل بالفاعل ، وحينما يتكلم نص واحد بصيغة غير مجهولة عن فعل يؤدي الى نتيجة مباشرة يحصل فرق في التصور حيث لا تتم الاشارة الى شخص مغربي أو عربي (ويمكن للطفل ان يراه قريبا منه) ولكن لأجنبي : « كان شاب فرنسي » (انظر نص : « المقامرة ») .

4 - التركيز على شخصيات الماضي

5 - طابع النصوص الاخلاقي مبالغ فيه ، بحيث يرتكز الى حد ما على خلاصات اخلاقية لتنشئة الطفل .

6 - طبيعة العلاقات بين الاشخاص (الاب ، الام ، الاخوة ...) الخ .

3 - بعض النصوص ومضمونها الايديولوجي

I - اذا افترضنا أن الخطاب المدرسي لا يخلو بصفة مباشرة أو غير مباشرة من مفهوم الشغل ، فما هو يا ترى نصيبه في كتب القراءة للمتوسط الثاني ؟ I4 / من النصوص هي التي تتكلم عن الشغل ؟

هذه هي الملاحظة الاولى ، اما الملاحظة الثانية فهي ان في « كلام » النصوص عن الشغل ليست ولو اشارة واحدة للضغوط التي تصاحب اي شغل (ضغط أرباب العمل .. الخ .) هناك نص واحد والذي يتكلم عن رجال المطافي هو الذي يتكلم عن مخاطر هذه المهنة ولكن المقصود من هذه الاشارة هو فقط لتسجيل الفكرة التالية : رجال المطافي يضحون من أجل الآخرين ، فالشغل ، فرغ من معناه لفائدة نوع من الصراع على شكل ايثار !

اما النصوص الاخرى فلا تشير لاي ضغط كيفما كان نوعه .. والذي يفسر التصور الذي تناول به المؤلفون هذه المسألة هو تسجيل الشغل كفعل اخلاقي .

(انظر ، مثلا ، « الطبيب والانسانية » وعدم تناول الاول أجرته على الخدمات التي يؤديها وهو في مصحته الخاصة !)
أو كذلك ادراك الشغل كفعل ايستتيكي مثل الفلاح (نص « الحرث »)

الذي لا تسجل الا حركاته وكانها ايقاعات وحركات فنية لا كمسقة ، وتعب
وعناء ! ..

وخلص القول ، ان « الشغل » يقدم الى التلاميذ في مظهر وصفي
والمطلوب هو حس الشم أو النظر أو السمع أو اللمس ... ولكن طابع العناء
والاستغلال يبقى مقنعا . وهكذا يقدم العامل في قطيعة تامة عن مشاكل
وصعوبات الحياة - حياته الواقعية. والتلاميذ يتلقون هذه المشاهد حيث الكل
ثابت ولا يسود الا الايثار والانسجام .

النتيجة هي اعطاء التلاميذ عالما متجردا من جميع الصعوبات الاجتماعية
المأموسة . وهكذا نقرا ان السعادة قد تكمن في الفقر !! ..

2 - ففي نص « النجاح والفشل » ، مرة أخرى لم يشير لا الى الشغل
والعمل وتكافؤ الفرص أو عدم تكافؤها ، الصراعات الطبقيّة في سير الحديث
عن الفشل والنجاح ! ولكن أتى الخطاب بـ « الثقة بالنفس » و « الإرادة »
وفكرة حتمية « طبقية » تكاد تبوح عن نفسها .

فكل شيء قد يزيل الستار عن الواقع قد ترك جانبا من طرف أصحاب
النصوص وكما يقول النص المذكور بأن الأسباب في الأفراد لا في المجتمع ..
فالشئ الذي يقدم للتلاميذ ليس الواقع المأموس ولكن خطاب مدرسي
ميثافيزيقي وديماغوجي .

3 - وفي نص « التعاون » شبهت الأسرة والمجتمع ثم المجتمعات
بالجسم الانساني : كل طرف (عضو) في خدمة الكل ! .. فنفس النمط ونفس
التصور الذي سيق من قبل يطبق الآن على المجتمع والمجتمعات الأخرى ..
فإذا وجد خلل فلأن الفرد - العضو لم يقم بواجبه ، وبالتالي فهو
المسؤول إذا لم يحصل التكامل ! تصور آخر ، هذا ، يطمس لا محالة الفوارق
الاجتماعية وسيطرة بعض الطبقات .

4 - اما في نص « الحرية » لم تحدد هذه الحرية : أي نوع من الحرية؟
وحرية من ؟ وبالنسبة لآماذا ؟ كل ما هناك هو الإشارة بغموض الى أنها هي
« السعادة » ؟ ! فبالتالي ما السعادة ؟ يقول النص : حينما لا توجد ضغوط
لا على الجسد ولا على الفكر ! ما هي الضغوط ، وما طبيعتها ؟ .. النص لا
يلفظ بشيء ..

وفي الأخير يبوح النص بأنها هي « الاحساس بالحرية » (نفسانيا) ،
وهي تلك « الشمس التي قد تسطع في قلب الانسان » ... فهي اذن غينا ، وعلى
كل واحد أن يجدها في نفسه وبالتالي ليست في الواقع وشروط الواقع ! ..
بصفة عامة وبدون المزيد من الأمثلة فان نفس التصور الميثافيزيقي هو
الذي يستمر في طغيانه على الواقع الملموس .

وفي الأخير نريد الإشارة الى أن تحليل النصوص تم من خلال مقولات
عدة ، وعلى سبيل المثال :

I - الأشخاص

أ - منزلة الأشخاص في النص

ب - الأشخاص والمصدر

ج - العلاقات الأسروية ، الخ ...

2 - المضامين الاخلاقية

3 - نظرة النصوص الى بعض المفاهيم الاساسية

أ - الشغل

ب - الفعل

ج - المجموعة ، الفرد ، الطبقة ، الخ ..

وعلى أي فان النقاش سيرجعنا لا محالة الى بعض القضايا
المنهجية وكذلك بعض الخلاصات الأخرى .

● قدم هذا العرض ضمن الندوة الخاصة بالخطاب الأدبي التي هيأتها المدرسة العليا للأساتذة
بالرباط (1979) .

صدر عن دار العودة ببيروت :

« ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب »

مقاربة بنيوية تكوينية

محمد بنيس

مساهمة في قراءة المتن الشعري المعاصر بالمغرب ،
بوعي نقدي ، يبتعد عن الاجترار والانبهار .